الاستعمار الفكري وخطره على الشعوب

للأستاذ : محمد بن أحمد الأمراني

ان كل امة من الامم ترتكز وجودها وبقاؤها على دعائم متينة تقف في وجه الاعاصير فلا تميلها وتجابه الاحداث الجسام فلا تزعزعها ، تستمد منها عناصر بقائها ومكونات وجودها واستمرار بقائها وحياتها ان هي حافظت على روحها وجوهرها .

وهذه الاسس هي : الدين واللغة والتاريخ والحضارة والشخصية المميزة ، ونحن امة تتوفر فينا كل هذه المقومات وتلك المميزات ، فدينا اسمى الاديان جاءنا بتعاليم وانظمة مثالية بزت كل الاراء الافلاطونية والنظرات السقراطية ، كما فاقت كل النظم والشرائع الارضية والمباديء والدساتير الوضعية .

واذا كان الدين الاسلامي من مقومات وجود امتنا الفتية ومن مميزات وطننا الذاتية **فان لغة الضاد هي أيضا احدى اسسه الفكرية والروحية ورابطته التاريخية والادبية فهي مصدر تراثنا الفكري الخالد ومنبع الهامنا ومجدنا التالد ، بها سجل تاريخنا القومي والعلمي ، ذلك التاريخ الحافل بالبطولة والمجد المليء بالعظمة والانتصار** ، ذلك التاريخ الذي أملى ارادته الجبارة على الحياة فاستجابت ، وسير دفتها بمهارة فانقادت ، ونشر لواءه الخفاق في المغربين ولمع نجمه الوضاء في الخافقين ، حتى صار اغنية في فم الدهر وانشودة في مسمع الكون تتحدث بخلوده الركبان على مر العصور والازمان .

ان معرفة تاريخنا هو الذي يغذي في ابنائنا شعورهم بكيانهم ، ويقوي تمسكهم بقوميتهم ، ويجعلهم يذودون عن حوزة امتهم ، ويحافظون على تماسك الحلقات التي تربط ماضيها بحاضرها ، كما تحفزهم على تقوية اواصرها ، والتحام روابطها لصالح مستقبلها وتقدمها والاحتفاظ بمقوماتها ، فالشعوب تموت اذا فقدت ذاكرتها ، وما ذاكرتها الا تاريخها القومي الحافل بالمكرمات المليء بالمناقب وارقى الحضارات ، تلك الحضارة التي هي جزء من كياننا وبعض تراثنا العقلي ، لايمكننا التخلي عنه او الانتقاص من قيمته ، لانه يمثل ماضينا كأمة وعظمتنا كشعب .

وآثار هذه الحضارة لاتزال ماثلة للعيان تشهد بعبقريتنا ، وتنطق بمجدنا ، وتدل على ما كان لآبائنا من عقول مبتكرة وروح تقدمية وذوق رائع في الفن والجمال والرقي والابداع .

واذا كانت هذه الحضارة من مقوماتنا الوطنية والتي تمثل بعض مظاهر شخصيتنا بأجلى مظهرها واتضح صورها وابرز خطوطها ؛ فان هذه الشخصية مما يجب المحافظة عليه لانها تطبعنا بطابع خاص وتسمنا بميسم يميزنا عن الامم والشعوب ؛ وكل امة من الامم تحتفظ بشخصيتها الذاتية ولا تقبل ان تذوب في شخصية امة اخرى كيفما كانت هذه الامة ؛ بل تعتز بها وترفع راسها عاليا حين تنتسب اليها .

ولقد توج هذه المقومات وقواها وابرز هذه الخصائص ونماها وحافظ عليها وصقلها واحاطها بهالة من القوة والمنعة ـ هذا العرش العلوي العتيد الذي حكم المغرب طيلة قرون وأجيال قام ملوكه ـ ولا زالوا ـ بأجل الخدمات حتى احتل المغرب مركزا ممتازا بين الامم وصار له صيت ذائع بين الدول .

تلكم ـ فيما اعتقد ـ هي المقومات التي ترتكز عليها دعائم وجودنا كأمة وهذه هي العوامل التي خلقت منا دولة مغربية وجزءا من امة عربية اسلامية قوية البنيان متينة الاركان .

واذا كانت هذه هي مقوماتنا الوطنية فلنعمل على تقويتها وابرازها ولنحذر من اضمحلالها أو ضعفها ، فان كل امة اضمحلت مقوماتها الذاتية أو ضعفت روابطها الوطنية الا وتنهار قوتها المعنوية وينفد رصيدها المدخر ويدب لها الانحلال والتواكل والخذلان وتفقد حلقة الاتصال الملتحمة بين ماضيها وحاضرها وبالتالي تفقد ذاكرتها وتتعرض لاخس انواع الحكم في تاريخ البشرية : الاستعمار البغيض .

ولذا فان الاستعمار الفرنسي حينما حاول ان يغزونا بشروره اتجه بمعوله توا الى هذه المقومات الاساسية والمقدسات الوطنية لتحطيم صروحها الهائلة ومعاقلها المنيعة حتى يتسنى له ان يستعمر بلادنا سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا وفكريا .

وانما توجه اليها بالذات لانه يدرك ان هذه المقومات لها قوة ذاتية عميقة الجذور في صميم هذا الشعب الابي وانها تقف عقبة كأداء في طريق فرض سيطرته على بلادنا ، فاعلنها حربا شعواء لاهوادة فيها ولا التواء على كل مقومات وجودنا من دين صحيح ولغة قومية وحضارة وطنية وتاريخ مجيد وعرش عتيد وشخصية مميزة حتى يسهل عليه فرنسة المغاربة بعد ان يكون قد قطع كل الصلات الروحية والروابط الاخوية والوشائج الدينية والاواصر اللغوية بينه وبين ماضيه وبينه وبين اشقائه العرب والمسلمين ، ومن ثم لايعود يفكر في وجوده او يستمد قوة شخصيته من تاريخه أو يستوحي العزم والايمان من تراثه القويم او يجدد بناء هيكله على ضوء تعاليم دينه الكريم ، أو يربط علاقاته الجنسية والدموية مع اخوانه في العروبة والاسلام ، كل ذلك ضمن خطة مبيتة ومؤامرة مدبرة نسج خيوطها وحبك دسائسها اخصائيون في فن الاستعمار استغلوا ثقافتهم الواسعة واتجروا باقلامهم الرخيصة وسخروها لخدمة الشر وباعوا امانة العلم وحقائق التاريخ وشرف المهنة وكرامة الضمير واستهتروا بحقوق الانسان في سبيل استغلال الانسان لاخيه الانسان .

ترى هل نجح الاستعمار في خطته التي سلكها للقضاء على مقومات وطننا ؟ كلا ؛ لان هذه المقومات منحدرة من اعماق تاريخنا ونابعة من صميم مقدساتنا وسارية في دماء افراد شعبنا ومتغلغلة في شعوره وراسبة في شعوره ، ولان لها من القوة والحصانة ما يجعلها في حرز امين .

واكبر دليل على ان الاستعمار لم يوفق في خطته كل التوفيق ان الذين غزاهم بثقافته كانوا من الاعداء الالداء له اصلوه نارا حامية بلغته وخططه ونظمه وكانت لهم مواقف وطنية مشرفة سجلها لهم التاريخ باحرف من نور ، ولكن احرازنا على هذا الانتصار يجب الا يخدع انفسنا ونعتقد ان الاستعمار لم يترك اي اثر من آثاره الفكرية المسمومة ، **فهناك طائفة تأثرت بدعاياته وافكاره واعجبت بها كل الاعجاب مع أن هذه الافكار ليست متلائمة مع طبيعة شعبنا ولا مع عقائدنا وروحانيتنا كشعب له مميزاته وخصائصه ومقوماته وشخصيته .**

واذا كان الاستعمار السياسي أو الاقتصادي أو العسكري يشكل خطرا كبيرا على الامة التي ترزح تحت نيره وتكتوي بناره فان الاستعمار الفكري ابعد اثرا واشد خطرا من ضروب الاستعمار الاخرى لانه يتصل بالعقل وبالقلب وبالعاطفة وبالشعور وبالاتجاه في التفكير .

ولقد تجلى اثر الاستعمار الفكري في كثير من الميادين الحيوية وضد عدد من مقوماتنا الوطنية فمن ذلك القول **« بان تشبثنا بالقرآن هو سبب تأخرنا »** فماذا يراد من نشر هذه الفكرة الغريبة عن ديننا ؟ يراد بها استعمار الافكار والتشكيك في قيمة تراثنا الروحي الذي تقوم عليه اسس كياننا ووجودنا ، حتى اذا تزعزع ايماننا بصلاحية القرآن ولم تعد نفحاته الروحانية تستولي على مشاعرنا وانظمته تجد من قلوبنا وعقولنا آذانا صاغية غزينا بفكرة اخرى من نوع جديد اخطر من سابقتها وهيهات هيهات . اليس هذا اثرا من آثار الاستعمار العقلي ؟

وفي مجال الحكم اصبحنا نسمع فكرة فصل الدين عن الدولة بمعنى « ان نبعد هذا الدين من حياتنا العملية ليبقى في عزلة لايحكم الحياة ولا يصرف شؤونها ولا يعالج مشكلاتها . فالدين — كما يقال — صلة مابين العبد وربه . اما صلات الناس وعلاقات المجتمع ومشاكل الحياة وسياسة المال ... فلا دخل للدين فيها ولا دخل لها بالدين » .

من اين جاءتنا هذه النظريات الغريبة على طبيعة الاسلام وعلى تاريخ الاسلام ؟ جاءتنا من اوربا نتيجة للاستعمار الفكري الذي غزا بعض العقول ؛ اذن ان قصة الفصل بين الدين والدنيا لم تنت في

الاسلام ولم يعرفها الاسلام ولم تكن يوما وليدة هـذا الدين ولم تعرفها طبيعته ولكننا تلقفناها تلقفا كالببغاء وحاكيناها محاكاة كالقردة ولم نحاول ان نفتش عـن أصلها ونشأتها ولا ان نعرف مصدرها وموردها .

اما في ميدان الثقافة فطالما رددت الالسنـة : ان اللغة العربية عاجزة عن مسايرة العصر مع انها كانت لغة العلم يوم كانت اللاتينية معدومة .

وفي ميدان السياسة كثيرا ما سمعنا ان المغرب بحكم وضعه الجغرافي يجب ان يتجه الى الغرب وانه لا فائدة في اتحادنا مع اشقائنا العرب والمسلمين .

هذه بعض مظاهر الاستعمـار الفكـري ولا شك انها خطيرة على مستقبل وطننا يجب ان نحذر منهـا ومن آثارها ، لانه لا استقلال لامة الا اذا تحرر ابناؤها من بقايا الاستعمار كيفما كان لونه والا اذا طهـروا عقولهم وافكارهم من تلك الرواسب العميقة التي بث الاستعمار سمومها من طريق مباشر أو غير مباشـر واصبحنا — مع كل الاسف — نرى آثارها متجليـة الـى اليـوم .

ان استعمار العقول معناه خروج المحتـل مـن البلاد وبقاء جيشه المختفي بين ظهرانينا ينخر هيكلهـا من حيث لا نشعر ، ويسبب لحكوماتها المشـاكل ويخلق لها العراقيل لاختلاف وجهات النظر بين ابناء الامـة الواحدة وقادة الشعب وانصارهم ، ولذا يجب توحيد الصفوف ،توحيد الافكار ، توحيد الاتجاهات بين ابناء الامة داخل المصلحة العليا للوطن ، فليس هناك مـن تثقف ثقافة قومية وآخر درس لغـة اجنبية ، هـذه تفرقة خلقها الاستعمار لتشتيت قوى الشعب ، وانما هناك شباب مغربي تجمعه رابطة الاخوة الدينيـة وآصرة المصلحة الوطنية ووشائج المبدأ ، وعلاقـات الاهداف المشتركة . ويجب ان نخلـق بين جميـع عناصر الشباب تجاوبا فكريا وروحيا وثقافيا ونكون من الجميع طاقات هائلة تنطلق الى البنـاء والنهـوض والاصـلاح .

ان الاستعمار الفكري هو أخطر أنواع الاستعمار على الامم والشعوب كما قلت آنفا ويتجلى مظهر هـذا الخطر في احتقار الانسان تراث بلاده القومي ورصيده الروحي والمعنوي وتشبثه بالانتاج الاجنبي واستيراد المبادىء والنظريات وبالتالي فقدان الاواصر الروحية بينه وبين ماضيه وانعدام كل الروابط التي تجمعـه مع اخوانه في الدين واللغة والتاريخ والالام والامـال ويصبح عضوا منفصلا عن اعضاء أسرة الوطن الكبرى التي ينتسب اليها .

ونجاح هذه الافكار التي عمل الاستعمـار علـى نشرها بشتى الوسائل — تفقدنا مـع توالـي الايام شخصيتنا كأمة لها مميزاتها الذاتيـة وخصائصهـا التاريخية ومقوماتها الاخلاقية العريقة عراقة هـذه الارض الطاهرة وازلية هذا الاطلس الجبار ، وانـى للاستعمار ومن تأثر بمظاهره المتقلبة وانخدع ببرقـه الخلب ان يصل الى ذلك ، فمقوماتنا الذاتية ضاربـة اطنابها في جذور التاريخ ومستمدة عوامل بقائها مـن تقاليد سليمة وعناصر صميمة صمدت لصـروف الدهر واحداث التاريخ فخرجت منهـا منتصـرة مشمخرة الذرى قوية الجانب مهيبة الشوكـة .